

الفصل السابع

الإحباط السياسي والاجتماعي

وآليات مقاومته

تمهيد

إنّ ما نعيشه ونعايشه في الواقع اليومي للبلاد العربية هو إحباط شبه كامل نحسّه ونلمس نتائجه عند كل المستويات التعلّيمية والشّرائح الاجتماعية، وكذلك عند السياسيين انتهاء بالمنعكسات على الأسرة. وحيث إنّ العلاقة التي تراجعت وتراجع باستمرار مع معظم القائمين على إدارة شؤون البلاد أو الحديث عنها مردها كما أجد، أنه كان في بلادنا دائماً إهمال للمواطن، وفي أحسن الحالات كان يتم الاهتمام بالبنى التحتية من طرق وكهرباء وهاتف ولو كان ذلك بالحدّ الأدنى، وليس ضمن خطة متوازنة لكل الأماكن في المدن والضواحي، على حين كانت تهمل شؤون المواطن الحياتية، مما يجعل هذه المشاعر تتأجج وترتك أصحابها، ومما جعل ويجعل العلاقة مع القانون والسلطة في بلادنا علامة مشوبة بالحدّر والشك كونها تميز بين الناس عموماً، ولا يتساوى الجميع أمامها.

فلما كانت العلاقة مع القانون في بلادنا علاقة غير مبنية على أسس تربية بحيث تبدأ مع الأطفال كي يصبح القانون الخارجي قانوناً داخلياً، لأجل ذلك نجد أن القانون له صفتان خارجية رادعة تعتمد على السلطة وداخلية نفسية رادعة تعتمد على الضمير والعرف الاجتماعي، لذا الملاحظ أن الإحباط النّاجم عن عدم تطبيق القانون ناجم من عدم فهم القوانين ووظائفها، فما هو معاش في بلادنا وعلى كل المستويات هو حالة الخلط بين السلطة والقانون، وحالة الخلط بين الممنوع والقانون أيضاً، إذن قانون المنع يؤدي إلى الحرمان والإحباط، أما القانون الثاني فيفترض أن يؤسس على

فهم اجتماعي نفسي يؤدي إلى تأسيس الرغبة وتطبيع العلاقات الاجتماعية. من كون العلاقة الثنائية بين طرفين يمكن أن تتطور فتصبح صراعية عنفية، ولكن بفضل دخول القانون كطرف ثالث لا شك سوف تحدث نقلة نوعية من ميدان الخيال العنيف إلى الرمزي ليجد كل فرد مكانه تحت ظل دولة القانون، من دون أن يضطر لإلغاء أحد... بالنسبة إلى السياسيين فإنهم يعولون إحباطهم بسبب ضعف الإمكانيات المتوفرة لديهم، فكل طرف يلقي بالشكوك على الطرف الآخر، لحد يضيع الهدف المشترك بينهما، وبهذا تكون الإمكانيات للالتقاء تبعاً للمواقف لهم مقيدة بأطر محددة. ولمحاولة فهم ظاهرة الإحباط الشبه معممة في بلدنا، هناك أسئلة تحتاج إلى التفكير والتأمل حول العلاقة القائمة بين المواطنين، حول مفهوم الوطن، الوطن في كل منا، ومحبة هذا الوطن ومفهومه النفسي؟

ما نلمسه أن هذا الفهم مختلف بين عموم الناس. فالوطن بالمعنى النفسي إما عطاء مستمر في اتجاه واحد، وإما عطاء ودين يتوجب على كل مواطن سواء بهويته وانتمائه، أو من خلال الاستمتاع بموارده أن يتمكن من إيفائه (حب الله، 2006) والسؤال الذي أجد طرحه مهماً أيضاً، كيف يمكن لكل مواطن أن يؤدي دَينه لوطنه؟

إنّ البنية الأساسية للمجتمع لا بدّ أن تقوم على علاقة ثلاثية بين السلطة والقانون والمواطن، حيث أن كل طرف مرتبط بالآخر، فعندما يحل المواطن محل القانون كائناً من كان هذا المواطن الحال واحد والنتيجة تكون بأن تعم الفوضى، لأن لكل واحد قانونه، وفي حال حلت السلطة محلّ القانون لا يعدّ الحكم ديمقراطياً، وإن أي خلل يطاول هذه العلاقة يؤدي إلى سوء فهم لكل دور، وإلى اضطرابات على الأرض وإلى تملل اجتماعي.

والإحباط لا بدّ أنه تأتي من الإهمال لحياة المواطن وحاجاته، مما يشير إلى أنه ناجم عن فقدان الحب بمعانيه الاجتماعية بين الحكومة والمواطن، وبين الوطن والمواطن.

فمثلاً إنَّ تعقد تدبر شؤون الحياة اليومية، والإحباط الناجم عنها في فترة من الفترات كان يُغيب عن الناس الاستمتاع، حتى بلذة طعم الفاكهة النَّاضجة في صيف بلادنا، والحصول على حاجة الأسرة من ثمرة شجرة الزيتون الذي تتبوأ سوريا مرتبة متقدمة في زراعتها وإنتاجها، والسبب في ذلك الأسعار المرتفعة من جهة، وبسبب أن أغلب المناطق التي تعطينا هذه المواد الغذائية في غالبيتها كانت في اضطراب أمني، والملاحظ حتى في حال توفر هذه المنتجات في بعض المناطق الأخرى أن أسعارها ترهق الزبون وتجعله مثقلاً بالإحباط نتيجة لارتفاع الأسعار اللامنطقي، لا يخفي ذلك اضطراب المزاج العام الذي يمنع الاستمتاع واللذة بنكهة ما يؤكل، كما أن تبادل النكت الشعبية يعطينا دلالة، رغم أنها اليوم باتت رفاهية مخجلة... وهذا ما ألمسه عند أصدقاء على صفحات التواصل الاجتماعي عبر النت، فقد نشرت منشوراً في إحدى المرات خلال الأزمة في سوريا، في مضمونه فكرة بروح النكتة، قال أحد الأصدقاء الافتراضيين بالحرف: ضحكت رغم أنني لم أكن أريد الضحك أبداً، إذ إيقاع الحياة اليومية من حيث الاندفاع والحيوية والحب والبهجة والنشوة الداخلية، فقد تلبدت هذه المشاعر والانفعالات الإيجابية، لدرجة أنني سمعت في الأيام الماضية عبارة تتردد هي: «لم أعد أحس بشيء» من عدة أشخاص من مراجعي عيادتي النفسية، كما كنت أسمعها من متدربين على العمل التطوعي للدعم النفسي، حيث تكررت لدى خمسة من الشَّبَاب والصبايا بعمر النَّضج والعتاء عمر المرحلة الجامعية من أصل عشرين شخصاً، وقد سمعت عبارة ووقفت عندها كثيراً لصبية جميلة مفعمة بالطاقة للحياة قالت: «عندما أشاهد شخصاً ميتاً بات الأمر عادي لا أحزن ولا أفرح»، هذا الجمود العاطفي الذي أتلسمه يومياً، من الدواعي التي حرضت كتابتي هذه، كما بات الكثيرون يعيشون في تذمر مستمر، وحتى في كلامهم نلمس ونسمع أنهم باتوا يقولون إن طعم الحياة، لم يعد كما كان في السَّابق، ليس لأنهم راضون عما عاشوه في السَّابق، ولكن لأن القلق يعصف بهم تجاه المستقبل... مما يجعل الفراغ حاصلًا بين الماضي والحاضر والنظرة للمستقبل.

وكان هناك حاجز ما، يحول بيننا كأشخاص وبين الاستمتاع، ورغم الإمكانيات المتوافرة لكل فرد على السواء، كي يستمتع بما يتيسر له لنفسه دون أن يطاوله شعور بالذنب قد يتحول في مرحلة ثانية، إلى شعور بإحباط مجهول المصدر، في فترة الأحداث القريبة التي عاشتها بلدنا سوريا، ومن خلال تواصلني مع محللة نفسية سورية، زميلة لي تقيم في فرنسا سألتني عن حالي، وقبل أن أجيبها أردفت رغم أنني أعرف نصف الجواب، ولكن لا بدّ أن أسأل، ما لمست من كلامها هذا، ليس جوابها عني، بل لمست أنها هي أيضاً وبحكم انتمائها الداخلي لما يعيش في البلد هي أيضاً غير مرتاحة، وهذا أيضاً ما نجده لدى السوريين المهجرين بدافع طوعي أو قسري، سواء هاجروا في ظروف مرتاحة، أم في ظروف خاطفة، الكل لديه حسرة ويعيش مستوى من الشعور باللوم والتقصير. هذا الغياب الحاصل في بلدنا للتليل الفكري والواقعي بعيداً عن النقد والتفريع وإلقاء التهم، هي عوامل تترك آثارها علينا، ولها أعراض اجتماعية ونفسية، لا يمكن أن تحمى بمجرد توقف القذائف، وفتح المعابر الإغاثية، وإقامة الجسور والدعوة إلى المحبة والعيش المشترك، فهذه الأحداث العنيفة اللامسبوقة فعلاً في تاريخ المنطقة، لا يمكن أن تتسجم مع أي منطق عقلاني أو إنساني، وهذا الشعور أساسه من أن الجميع يشاركون بهذه الأحداث، إن لم يكن بالفعل فبالهوام والخيال، فمن يشهد على الموت يحمل شعوراً بالذنب حيال من فقد حياته ممن حوله، وهذا ما يسمى "بعقدة الناجين من الموت"، وما يحصل من دمار في البلاد، وتهجير للسكان وتعطل الأعمال من خلال اضطراب إيقاع حياة الناس. وبذلك نجد أنه حين تتعب نفسيتنا نقسو على الجميع دون ذنب حتى أولئك الذين نحبهم كأطفالنا وأصدقائنا، وبما في ذلك أنفسنا، من هذه المقولة: لا بدّ من الوقوف عند "عقدة الناجين من الموت" التي يمكن أن تُفسر بأن هذا الخيار، قد أتى تلبية لأمنية تضرر في النفس، فخرج الشخص سالماً وأخيه قتيلاً، لا بدّ أن يولد شعوراً بالذنب، لأنه لم يكن بريئاً حيال هذا الخيار القدري، من هنا تصبح العلاقة مع الحياة قسرية، والعلاقة بالاستمتاع بملذات هذه الحياة تصبح مقرونة بالألم والحزن الداخلي.

فقد أصبح المواطن في بلادنا من جراء هذه الأحداث المشحونة، ومآلات دوامة العنف، كالطفل الذي يحتاج إلى المؤازرة والمؤاساة، وبحاجة إلى من يحسن فهمه، والاعتراف بأزمته بات ضرورة ماسة أكثر من تلبية بعض من حاجاته المادية الملحة، بما في ذلك المثقف والمتمثل بالقارئ والكاتب والفنان والصحفي والأستاذ... بمعنى آخر المثقف هو «كل مواطن اعتبر الثقافة وطناً له»...

فالمثقف يعاني من تهميش لحقل الثقافة في معالجة الأحداث، والتكلم عنها بحرية، وهذا ما زاد ويزيد معاناتنا، لأنه السبيل الوحيد بتقديري الذي يمكن أن يخرجنا من صدماتنا من خلال ما يعاش من جراء الأزمة السياسية التي تعيشها بلادنا، وأحداث العنف الدامية المرافقة، حيث إن هذا الخروج عبر الثقافة يكون عن طريق الترميز، بدلاً من أن يأخذ الإحباط شكل النقد والنق والنكد، يمكن أن يتجه نحو التعبير الفكري الكتابي، فمهمة الكاتب المسرحي والروائي تتمثل باستقراء الآلام الداخلية، باستخراج التعابير اللازمة لها، وكذلك الفنان والرسام والشاعر وعالم الاجتماع وعالم النفس، وغيرهم من التخصصات والمواهب القريبة من ألم الناس. الإحباط عند المثقفين واضح المعالم، فمن معالمه أنّ أي مثقف لا يقدر اليوم أن يُحيد الموضوع السياسي عن اهتماماته، حيث صار الحديث السياسي، ورجالات السياسة الفعلين على الأرض يقاسمون المثقف تفاصيل حياته، كما لو كانوا الظل الذي لا يمكنه الانفصال عنه.

خلاصة القول: إنّ عامل الزمن هو الأمل الوحيد لتصحيح الرؤية للنفس، ومن ثم للوطن والمواطن وهوية الانتماء... لذا هناك سؤال أجده وجيهاً، هو: لماذا موقع الخطاب السياسي يستقطب كل اهتماماتنا؟

فجميع أطراف النزاع اليوم يحاولون إيجاد موقع لهم في الحدث السياسي، إذ يجدون لهذا الموقع أفضلية، ويعملون على تبوء هذا الموقع.

فإن سنحت الفرصة يتخلون عن اختصاصاتهم سواء العلمية أو الثقافية أو الدينية، فتجبر كل الأمور إلى المجرى السياسي ويجعل فرص استقلال الخطاب

الثقافي معدومة، وذلك لأن خطاب المثقف يتسم بالعدمية في هذه المرحلة بالمقارنة مع الخطاب السياسي والمالي، لأنه بصورة أكيدة تفعيل دور المثقف في حياة الناس، هو ما يشكل أكبر الخطر على الموقع السياسي، مما يدفع جميع الأطراف إلى محاربتهم أو احتوائهم لصالح خطاباتهم، إن أسوأ ما يعاش في الواقع الثقافي اليوم، أن يكون المثقف مرهوناً بالسياسة ورجالها، بدلاً من أنه من المفترض البحث عن سبل لتفعيل المحتوى الثقافي، واستثماره شعبياً، لأن الثقافة في حياة الناس هي الانفتاح على ذاتية الآخر، فهي بذلك اعتراف على المستوى الرمزي، لتصبح كل تفاعلات حياتنا الفكرية والنفسية تتجاوز الحاجات الحياتية...

يبقى المثقفون والمفكرون قديماً وحديثاً هم القوة غير المنظورة لأي بلد، الثقافة التي يتحلى بها شعب ليواجه بذلك الأخطاء المحدقة ببلدهم، فأهمية المثقف إن تم تفعيلها، قد تتجاوز قوة أكبر الجيوش، وبذلك كان لهذا الواقع المخيم على الجو الثقافي، مما أدى بالكثير من العقول إلى الهجرة.

إذ إنه رغم قسوة الغربة يتم تفضيل فراق الوطن والأهل على العيش في ظل جهل أو غوغاء أو فساد. ولاسيما أنه لم يكن للمثقف أي دور أو مكانة، حيث ينظر للكلمة الفصل تلك المتأتية من الساسة والسياسيين، هذه الكلمة في مفهومها الضيق المسيطر، تغدو من الدواعي الأبرز لإحباط المثقفين اليوم. وقد نستطيع حصر أحد أهم الأسباب أيضاً لهذا الإحباط المتجلي بتدني الوضع الاقتصادي، ولكن من وجهة نظري أن عدم الاكتفاء عند المثقف من عدم حصوله على التقدير لما يكفيه، والفنان لما يرسمه، حيث لو حصل ذلك لكان التقدير لما كتبه الأديب والمثقف، ولما يرسمه الفنان من خلال الاعتراف بفنه، وبذلك يكون الاكتفاء عند المثقف يعاش عندما يجد أن الرسالة قد وصلت إلى هدفها، فاكتفاؤه في مكان رمز بينه وبين المجتمع من خلال إعادة مكانته واعتباره. من هنا يكون إحباط المثقفين مضاعف مرة بسبب الوضع الاقتصادي لهم وأخرى بتهميش دورهم في الحياة العامة.

من تجربتي العملية في برنامج العمل النفسي لضحايا العنف في الفترة الأخيرة، فأبرز ما أجده أن الأمور متجهة إلى رؤية الظاهر من مشكلة الأحداث، بما تخلفه من دمار وخراب وتعطيل للبنى التحتية، ويغيب وبشكل مؤسف عن الذهن الخراب غير المنظور للطاقات البشرية، هذا الخلل الحاصل هو بتقديري، له انعكاساته المباشرة في التعامل الاجتماعي، والخلل الذي حصل لا يزال يحمل آثاره بين الناس أنفسهم، الثقة مفقودة بين التاجر وبين المستهلك وبين الأصدقاء وبين المريض ومعالجه.

وفقدان الثقة هذا يعود في الدرجة الأولى إلى ذهنية الحرب، وما كانت تبيحه من انتهاكات للحقوق الإنسانية والقانون المدني والعرف الاجتماعي، ويبقى السؤال المركزي الذي أجده قد يكون مدخلاً للعمل على هذا الإحباط الحاصل، هو: كيف يمكن أن تعاد العلاقات الاجتماعية إلى مسارها الطبيعي في بلادنا؟ هذا الأمر لا يمكن من وجهة نظري أن يعاود الاستقرار دون إعادة الاعتبار إلى ما يسمى الفكر الثوري، بكل إنتاجاته الثقافية والعملية. بعد أن عانى المثقفون في كل مواقعهم الفكرية من تهميش دورهم في الحياة الاجتماعية ولم تكن لهم الكلمة الأقوى.

كما أن مكمن الخطورة في الحرب على الذات في بلادنا، يأتي من كونها تعطل الطاقات والإمكانات ولا يتم توظيفها جيداً وما زالت بخسة، لأنه مهدور واكتتابه يضاعف من هزيمته، ويرسخها من خلال النظرة التبخيسية إلى الذات وإمكاناتها وطاقاتها، لتصبح الهزيمة التي كانت تعاش خارجية في الأصل لتعاش كهزيمة داخلية، وهذا ما يضاعف من سوء حاله، من خلال هدر الطاقة ثنائي المصدر: خارجي وداخلي في آن معاً حيث إن جلد الذات يعطل العقل والسعي للخلاص من هزيمة الهدر، أو الحد مما يحمله من خسارة من يجلد ذاته يغرق في العطالة بدلاً من النهوض إلى التحدي والاستجابة له، فهدر الطاقة الذاتية يتعزز بشكل مضاعف من خلال صب النقمة على الدنيا وقوانينها وعلى الناس كل

الناس، من خلال النظرة التّشاؤمية، للوصول لأمل يرتجى، حيث بات الحال هنا، فليس من سبيل إلى الفعل والتّديبير ولا مجال للخلاص، لا تتعطل عندها الطاقات الذاتية وحدها، بل يصيب العطل لكبت وطمس المشاعر، حيث لا جدوى من ذلك في نظر المكتئب الذي يسدّ على ذاته، كل منافذ الفرص وإمكانات الحل، وهو حين يفعل ذلك يكرس هدره من جديد، بحيث يتحول إلى أداة هدر كيانه، ويجعل من ذاته أسيراً للقيّد المزدوج.

ومما لا شك فيه أن جلد الذات وتبخيسها من جانب، وسد آفاق الدنيا الواقعية من الجانب الآخر، يُنتج الإنسان المهودر وفقاً لرأي "مصطفى حجازي" حيث يقع ضحية فخ الاكتئاب الوجودي من خلال تجمد الديمومة، وتعليق التاريخ واجترار المأساة، ليقترّب الهدر من فعل الصدمة النفسية (truma)، إذ تحدث الصدمة النفسية كرد فعل على حدث مفاجئ، وبدون إنذار أو استعداد من قبل الشخص، كي يتهيأ للدفاع والمجابهة حيث تحصل الصدمة، عندما لا يتوقع الشخص حصولها بتاتاً، ويظل الشخص مذهولاً إزاءها كي يكتشف بعدها، أن مجرى حياته قد انكسر وتاريخه قد بتر ولا يعود بعدها أي أمر كما كان سابقاً، فيحصل لقاء فاشل بين الشخص المصدوم والواقع، بحيث تصل درجة الإحباط نتيجة الهدر لحد الصدمة، حسب هدر الطاقة المتعرض لها، بحيث يخترق الواقع الموضوعي قلب الواقع النفسي فيحدث فيه ثغرة وتمزقاً في الأنا، ويترك الشخص مهزوماً بلا دفاع حسب هدر الطاقة المتعرض له.

في تاريخ العرب البعيد العائد لما قبل الإسلام كانت ولادة شاعر أهم من ولادة فارس مغوار، وحسب تصنيفات اليونسكو الشاعر هو فيلسوف...

من هنا لا بدّ من التأكيد أن المثقفين والفنانين أو المفكرين بصورة عامة، هم القوة لأي بلد، لذا إحباط المثقف ليس مشكلة شخصية، لأن هذا الأمر يطاول المجتمع بعناصره كافة، وذلك كون المثقف هو سفير لبلاده إلى ما وراء الحدود ومراسل لبلاده، بحيث يستقي منهم ويعطيهم لنجد أن كيفية توظيف الكلمة بعيداً

عن المال، وتغلب المعادلات من توظيف الكلمة من خلال تفعيل المال ليخدم الكلمة والفكرة، وليس العكس.

آليات مقاومة الإحباط وهدر الطاقة

ومن هذه الآليات التي قد تتفاوت فعاليتها أذكر:

1- آلية الاحتماء بالماضي: إذ من الشائع أن نجد اللجوء إلى ذكريات الماضي سواء المتصل بالأفراد أو الأمم، الاحتماء بالماضي شائع في أوقات الهزيمة الجماعية من حيث الجماعة تتشد العيش في الأمجاد التاريخية ووهم إمكانية استعادتها بما يوفر توازناً وجودياً بديلاً - ولما كان الماضي لا يستعاد بل يندمج مع الذات، ولا قيمة له بالتالي إلا بمقدار ما يحفز على النهوض إلى مواجهة المصير وصناعة المكانة، أن يتجنب الإنسان المُحبط الحاضر الذي يضعه أمام مأزقه وعجزه عن التعامل معه، إما بالهرب في أحلام اليقظة المستقبلية أو من خلال أمجاد الماضي، وهنا يتم التخلي عن المسؤولية الذاتية في المجابهة والفعل تاركاً الأمر للظروف التي تأمل أن تأتي فيها اللحظة المواتية - هنا يتم التحول إلى حالة الانتظار تماماً كالمحتاج مادياً، الذي يحلم بضربة الحظ التي تغير وضعه من حال إلى حال.

2- الاحتماء بالقدر والمكتوب والامتحان والبلاء دفاع جماعي آخر في مواجهة الهدر: يتجاوز الأمر في هذه الحالة مسألة الاحتماء وصولاً إلى إسقاط المسؤولية الذاتية، فليس للإنسان إلا التسليم وليس عليه من ذنب أو غضاضة وليس له أن يعاني من تعجيرات الأزمة الذاتية ما دام لا سلطة له أو إدارة أو حول لما حل به، حيث يتخلى الإنسان هنا عن مركز الضبط ويترك ذاته للأقدار تفعل ما تشاء.

يشكل الكلام واحدة من آليات التمويه وملء خواء الكيان الأكثر شيوعاً في بعض الأوساط، الثرثرة والإفراط في الكلام الفارغ من المحتوى لتضليل الآخر حول

القيمة الذاتية، فمن خلال الكلام يعطي المتحدث لذاته القيمة، والمكانة والقدرة كونه يبهز من يستمع إليه.

3- الهروب في العموميات والتَّنْظِير: وهنا تتحول اللغة إلى أداة لتزوير الواقع المدقع بالموت العنيف، فيعاد إنتاج الهدر المعبر عن الإحباط، والقلب إلى الضدّ إحدى آليات الدفاع البارزة ضد الإحباط، من مثل الاستعراض الذاتي للمعرفة، والادعاءات المبالغ فيها على مستوى المعرفة والمقدرة عند من بعض المتحذلقين ممن يتعاطون للشأن السياسي كحرفة بكلام اجتراري ليس إلا.

4- ادعاء التمكن من التدبير: من خلال التسيير في إيجاد الحلول للمشكلات وإيهام الآخرين بالقدرة على القيام بما يعجزون عن القيام به، والقفز إلى الاستئثار بالكلام مع تطاير الأفكار "fligh of ideas" البعيدة كل البعد عن مسببات الحدث الحقيقية. لذا بهذا القطع عن فهم المسببات يغدو التفصيل في الحدث لا يعدو كونه ثرثرة.

يقلب العجز إلى قوة موهومة والفشل إلى ادعاء النجاحات، والجمود والسلبية إلى مبادرة غير مدروسة، لا تقوم على أساس من القدرة والفاعلية، حالة إلغاء الضعف واستبداله بوهم القوة، وإيهامها من خلال الانضمام إلى الوجهاء، من ذوي السلطة والنفوذ، ليس هذا التقرب المقصود منه الكسب أو تحقيق مصالح بل هو مجرد تباه بالانضمام إلى حلقات تؤمن إطار مرجعي، بحيث نسمع كثرة الادعاءات لدى الواحد من هؤلاء بأنه يأخذ على عاتقه هم الجماعة، لأن لديه الكثير من الغموض في انتماءاته وولاءاته.

5- الإدمان على الكحول والمخدرات: أحد آليات القلب إلى الضدّ المعروفة، لما فيه من تغيير لدلالة الوجود ذاتها، وبالتالي دلالة الذات من حيث أن المخدر يقوم بدور التعويض عن خواء الوجود، وبؤس انعدام القيمة.

6- الاحتفاء بالمقدس واللجوء إلى حلقات الذكر وشعائر التطرف: حيث تتغلب دلالة الوجود على الفراغ والخواء والفشل إلى انعدام القيمة، والمعنى من

خلال تراكم التعرض للعنف المتراكم داخل الصّدر بأشكاله المختلفة، يعدّ واحد من المسببات الأساس لعيش الإحباط حين تتراوح الطاقة ما بين نبض الحياة المبدعة، و نار العنف المدمرة ما بين طاقة الحياة وطاقة الموت.

حيث إن فعل الطاقة المتراكمة التي تتحفز لكي تكون آلة فعل، يمكن أن يكون إبداعاً خلاقاً وعنفاً مدمراً بفعل الطاقة المتراكمة التي تتحفز للانفجار بعد ضغط الظروف السيئة، ويمكن أن يستتار بفعل حادث مساعد أو مفجر يحمل الكثير من عناصر المفاجأة، إنها طاقة تتحول من وجود بالقوة إلى قوة تحوّل وجود الطاقة الكامنة إلى وجود بالفعل، من حيث القوى المركزية الساعية إلى التّجمع في نقطة مركزية تغذيها طاقات متناثرة تجمع أشلاءها وتتراكم في نواة صغيرة وقريبة في آن واحد، وفي صلب عملية التّخزين هذه، يُخزّن ما يمكن أن يكون قوى خير أو قوى شر، قوى حبّ وحياة أو قوى نار وعنف "قوى مبدعة أو قوة مدمرة".

هذا الصّراع ما بين قوى الحياة وقوى الموت، ما بين قوى الحبّ وقوى التّدمير حيث لا شيء يضيع، وإنما كل شيء تتحوّل مسار حركته، ليكون متدرجاً ومتعرجاً ومتداخلاً، وفي اتجاهات عديدة منها ما ينطلق، ومنها ما يستدير ويعود لكي يعاود الانطلاق. والمعادلة التالية هي: معادلة حركة الطاقة المخزنة والمتحركة.

وبذلك يكون اضطراب المزاج الناشئ عن الأسباب العلائقية المختلفة التي تم الإشارة إليها كونها، فعلاً نكوصياً نتيجة الصدمات الهلعية التي خضعت للكبت الطويل، وجاء حدث مفصلي ليحركها، وأتاح ظهور حالة نكوصية برزت معها معالم العزلة والاكتئاب والانهيار.

ومن أسباب الإحباط أيضاً:

إن المعركة الحاصلة في الواقع المحيط، والانكفاء على الذات، نتيجة ضعف الثقة والإحجام عن التبادلات الاجتماعية، ما يعني تداعي قنوات الاتصال، والدخول في متاهات الاتصال الذاتي وغياب القدرة على الإدراك، والحكم على الأشياء مما قد

يصل مرات إلى حدّ الهلوسة والهذيان، هذه البيئة النفسية والاجتماعية هي ما تؤسس لحالات مرضية نفسية خطيرة، من حيث إن صفة التّكيف تسيرها النزوات والغرائز المختلفة المنفلتة من عقالها، التي لا تعرف الضوابط ولا الحدود، إلى سلوك الانكفاء والانكماش دون الدخول كلياً في دائرة الذهان، ليغدو الفراغ تربة خصبة لحالتي الاكتئاب ونوبات الهلع... وبذلك يكون الكلام أو التبادلات العاطفية استخراجاً للمعاناة، وعدم إبقائها كداء قاتل يستبيح الموت.

فالدّخول في مرحلة من العبثية، وغياب الأمل وضياع الوعي بملذات الحياة، تعاش خلالها عقدة الذنب كحالة نفسية اكتئابية غير مرضية، هو ما يسمى بالإحباط، كما أن تجمع الطاقة في نقطة معينة يؤدي إلى حالة شحنة متوترة تؤدي بدورها إلى حالة توتر ميكانيكي، هو بمنزلة بؤرة عنف منطلقة مادياً ومعنوياً. ومن خلال إفراغ الطاقة من هذه النقطة المركزية، يتم في اتجاهات عديدة مما يؤدي إلى إذابة الشحنة، كما يؤدي بدوره إلى استرخاء ميكانيكي.

إذ في نهاية الاسترخاء تعود الطاقة لكي تتجمع تدريجياً في المراكز، وذلك بعد إعادة تجميع القوى المتناثرة في جهات متعددة، بحيث لا يتم الإفراغ بالكامل، فما يتبقى من الشّحنات المتراكمة غير المفرغة، يتقدم فيتحول إلى طاقة عنف وغضب مدمرة للذات وللآخر، مع أنه يمكن لهذه الشحنات أن تكون بقايا طاقة مبدعة وخلاقة.

إن كل سجن للطاقة يؤدي إلى تشويهها وإتلاف نبض الحياة فيها.

- وهناك احتمالات ثلاثة لآثار سجن الطاقة العنيفة هذه من مثل:

عنف القمع "repression": وهو فعل اجتماعي خارجي قد يخضع له الفرد في بيئته المادية والبشرية، كأن يُمارس عليه مثلاً من السلطة الخاضع لها، ويتراوح عنف القمع ما بين أشكال عديدة كالتجويع والتهميش إلى التمييز والمصادرة إلى الضرب والاعتقال... إلخ أي سائر مستويات ممارسة سلطة القوة مادياً ومعنوياً. هذا العنف لا يلبث أن يستثير عند الضعيف الضحية كل مقومات الصد والتجلد

والمكابرة، وممكن أن يصل إلى الثأر، حتى ولو بعد حين وفق تركيبة البنية النفسية لبعض البيئات الاجتماعية.

لينشأ ويتمظهر **عنف الكبت** "refaulement": وهو فعل نفسي داخلي ذاتي تتحول بموجبه سلطة القوي والظالم إلى سلطة ذاتية بواسطة آلية التمثل والامتثال، وذلك بتمثل السلطة الخارجية، وتحويلها إلى جزء لا يتجزأ من الشخصية والامتثال لهذه السلطة كونها تخيف وتهدد وتحاصر، وتعرض الأمن الداخلي والذاتي للخطر، إلا أن الكبت الذي يطال الطاقة المقموعة لا يلبث أن يتلاشى، وتتهار عند أول مناسبة متاحة وممكنة. وعندها يعود المكبوت بشكل ناري ومدمر فيجتاح، ويبيد ويهدم ويقتل، وكما هو معلوم وفق المنظور النفسي التحليلي أن: "لكل مكبوت عودة".

عنف الصّد "inhibition": وهو فعل عضوي جسدي فيزيولوجي وبيولوجي عصبي وعضلي وحركي وأحشائي، إن الآخر الذي يوجد في الخارج، وتتفاعل معه بالإحساس، لا بدّ أن يتحول إلى إدراك، حين يصبح معطىً مدركاً، تصدر عليه أحكامنا، وتُعطى أوامرنا بالاستجابة له سلباً وإيجاباً، ونحن نتخذ منه مواقف تستثير حركة عضوية فاعلة، ويصدر عنها آلية عصبية وعضوية سلبية وإيجابية، من هنا يحصل التقاطع ما بين النفس والجسد، ويمكن لهذا التقاطع أن يكون على شكل تواصل عضوي سليم وصحي وبناء، كما يمكن أن يكون سلبياً وصادراً على شكل توتر أو نسيان أو عوارض نفس جسدية بالغة التعقيد، مما يشار إليه حالياً تحت الضغوط أو التشنج "stress".

وقد يتحوّل **عنف الكبت** إلى **عنف الصّد** لحركة الجسد، ولوظائف الجسم ليظهر ذلك في صورة أمراض نفس جسدية عبر نواة علائقية تبادلية تسمى /السّد/ التبادلي الذي تحدث عنه "د. سامي محمود علي" والتي تُعد نظريته في الأمراض النفس جسدية، إحدى المداخل العلمية المهمة لفهم آلية حدوث الكثير من الأمراض العضوية الخطيرة من مثل أمراض السرطان، واضطرابات وظائف الجسد المتنوعة إلى أمراض الضغوط على أنواعها على قاعدة وحدة النفس والجسد.

وتجدر الإشارة إلى أن أخطر أشكال العنف المسببة للإحباط من شدات نفسية عالية هو "فقدان الذات والنرجسية":
إذ كثيراً ما يلاحظ أن الشخص المعنف يمر بفترات عابرة يتغير أو يتبدل فيها الإحساس بالذات وبالتالي يحصل فقدان لقوام الشخصية "depersonalization" وفي هذه الحالة يدرك الفرد أنه أصبح مختلفاً جذرياً، وبدرجة كبيرة عما قبل، من حيث يشعر الشخص بوجود تغير حقيقي في نفسه بالنسبة للعالم الخارجي، ويشعر بتغيير كبير قد طرأ على صورة جسمه، فيرى أن ملامحه متغيرة، فلا يتعرف عليها أو يستهجنها عندما ينظر إلى المرأة، فالشخص يخبر نفسه متجهداً بليداً، فتصبح صورته غير مألوفة له، ويتبدى له جسده، وقد أصبح خفياً هشاً، هذا الإحساس العام بفقدان الذات، يكتنفه أيضاً إحساس عام موازٍ بالامتعاض من كل ما يجري وباستغراب لكل ما يحدث له من جمود انفعالي.

"Von Gebsttle" يقول: إن فقدان الشخصية هو اضطراب في ذاتية النفس "autopsycho" حتى أنها ترى كل شيء حولها وقد أصبح ميتاً، إنه صورة من الخلل في الذاتية النفس جسمية "psycho-somatic" بحيث أن الشخص يشعر وكأنه لم يعد ممتلكاً لذاته، وفي رؤيته لفقدان الشخصية يرى "Akner" أن الفرد الذي يمر بهذه الخبرة، لا يمكن أن ينساها، وهو يعتبرها خبرة تتسم بتغيير على المستويين الداخلي والخارجي، وهذه الظاهرة في مجملها هي خبرة غير سارة بالمرّة، وقد تمتد لتشمل أيّاً من الوظائف العقلية الأخرى. أما "Schider" فيصف حالة فقدان الشخصية بأن المريض يشكو أنه: لم يعد ممتلكاً لذاته وأنه أصبح آلة ميكانيكية تلقائية التسيير، وكأنه أصبح دمية كل ما يفعله بلا إرادة فلا يشعر باللذة، أو حتى بالإثم، لا يكره ولا يحب، وفي قمة الإحساس بفقدان الشخصية يفقد الشخص مدركاته الجسدية. فلا يشعر بالجوع أو العطش، وبذلك يصبح غير قادر على التصور، أو التذكر حيث عند فقدان الشخصية يبرد الوجدان، ويتلاشى. ولكن تبقى البصيرة متألمة متحسرة على ما يحدث في هذه الحالة، من

ذلك نجد أن الخبرات والمعلومات، التي تأتي من خارج الشّخص إليه يتم إنكارها كذلك، تهمل الأحاسيس التي يشعر بها الشخص داخل جسده، وتقتحم انطباعاته وانعكاساته الذاتية "reflective impressions" كل المساحة أو كل الحيز المتاح لكافة الإدراكات الأخرى الخارجية والداخلية، حتى يفقد كل شيء حول شحنته الانفعالية، لتصبح كل المؤثرات القادمة من الداخل أو من الخارج متعادلة حيادية تقتقر لأي طابع مميز، ويصل التّمادي في امتصاص الذات لنفسها إلى منتهاه حتى يهمل الشّخص الطّبيعة والبيئة، بحيث يصبح فقدان الشخصية صورة من صور إهمال كل الخبرات الآنية، من الدّاخل والخارج، من الشّخص ذاته ومن محيطه الاجتماعي.

هذه الخبرات التي يختبرونها تجعل من المستحيل عليهم أن يشعروا بذواتهم، من خلال فقد الإحساس بالنّفس، وكنتيجة لانعدام إحساسه بالآخر، فحين يرفض الشّخص قبول كل ما هو غير ذاتي، فإنه بالضرورة يفقد ذاته.

إن من أوجه اضطراب الإحساس بالذات، تعاضم هذا الإحساس، لدرجة أن يرى الإنسان فيها مركز الكون، وأنه لا بدّ وأن يقع في موقع البؤرة من اهتمامات وعلاقات الآخرين، حالة من النكوص إلى مرحلة مبكرة بدائية من الإدراك المعرفي العارض التي تسود عند الأطفال الدّين لم يتجاوزوا العام السّابع من العمر. "التفكير ما قبل الإجمالي" "preoperational thought" أو حالة التّمركز حول الذات "ego-centricity" تبعاً لعام النّفس التّربوي الشهير "جان بياجيه" فهذه الحالة يمكن قبولها من طفل في مرحلة الطّفولة الأولى، ولكن من يتصرف حسب معطياتها، وهو بالغ لا يتردد الناس بوصفه أنانياً - نرجسياً، ومن الخطير حقاً أن يكون من يستأثرون في مراكز مرموقة في المجتمع مازالوا متثبتين، على هذه المرحلة في نموهم النّفسي، وحيث إن النّرجسية هي حالة يوجه فيه الإنسان لذاته كل طاقات وسهام الحبّ، التي كان من الحرّيّ به أن يوجهها أو يصوبها تجاه الآخرين، لأن النّرجسية حالة من النّكوص إلى إدراك مبتورة فيه العلاقة بالآخرين، وإلى وجدان مقيد توجه

فيه سهام الحبّ إلى الذات، وليس أخطر على نمو بزوغ الشخصية من أن تطلق في قلبها سهام حبها، فتصاب في مقتل لا شفاء له ولا دواء، وحيث الكل يحبّ نفسه، ويحبّ الآخرين أيضاً، ولكن في حال فقدنا حبنا لأنفسنا، نعجز عن حبّ الآخرين، لأن فاقد الشيء لا يعطيه...

يرى ياسبر عالم النفس المعرفي "Jasper" أن هناك أربع وظائف يجب أن تؤدي بكفاءة حتى تتم عملية إدراك الشخص لذاته.

الوظيفة الأولى: هي إحساس الشخص بنشاطه.

والوظيفة الثانية: هي إدراكه لوحدة ذاته، وعدم تبعثرها.

والوظيفة الثالثة: هي إدراك الذات لاستمراريتها في الزمان.

والوظيفة الرابعة: تتمثل بإدراك الذات لكل ما هو شخصي في مقابل كل ما هو غير شخصي.

الكر والفر والغضب والعنف مآل لكل إحباط

إنّ الاكتئاب الذي هو في النهاية مآل كل إحباط يتضمن ردود أفعال من توتر، ونزق وغضب، كما أنّه يتضمن جلاً للذات ولوماً، ومن كون هذه الانفعالات عدوانية مرتدة إلى الدّاخل والنيل من صورة الذات الفاشلة وصولاً إلى تحطيمها، والقضاء عليها في مكافآت الانتحار الوجودي، أو حتى الانتحار الجسدي، الذي يشكل أقصى اعتداء على الذات عندما يتعذر التعبير عن الغضب أو انفجاره، فتكون النتيجة أن يتحول إلى الدّاخل، ويتخذ شكل الاكتئاب والميل إلى الحط من قيمة الذات، وتحطيمها فمن يثور لا يكتئب ومن يكتئب فهو عاجز عن الثورة، أو محروم منها.

كما أن ابتلاع الغضب والحقد، يتحول إلى اكتئاب وحقد وبمقدار اشتداد الغضب، وتصعيد العدوانية التي تغذيها يزيد الاكتئاب والنيل من الذات وتحطيمها. وفيما يلي سوف أعرض التفسير النفسي التحليلي الفرويدي للإحباط كما يلي:

ينظر "فرويد" إلى الإحباط على اعتباره عدوانية مرتدة إلى الذات، بعد أن اجتافت موضوع الحب، ما يهمننا هنا هو هذا الارتداد إلى الذات تحديداً بدون المجادلة، بشأن واقعية القول بإجتياف صورة المحبوب، وصبّ العدوانية عليها على مستوى ذاتي داخلي. وخير مثال عليها الأمراض السيكوسوماتية النفسية الجسدية مثل ضغط الدم وقرحة المعدة وارتفاع منسوب السكر في الدم، مما يرافق عادة الشدائد، فكل هذه الاضطرابات، لا تعدو أن تكون غضباً مكظوماً ممنوعاً عليه أن يتجلى في الظاهر، وبالتالي يرتد إلى الذات...

ومن المعروف لدى المشتغلين أن من تعرّض من الأشخاص لحوادث صدمية، نجدهم أثناء الصدمة يصبحون خارج الزمن، ومعلقين في هذه النقطة ومحكوم عليهم بالعجز إزاء الواقع العصي على الاستيعاب، هذا هو الحال في وضعية الهدر العنيف للمصدوم.

فعندما يتدهور الوجود إلى حالة التكرار لمأساة الهدر، التي قد تتفاقم إلى مستوى الاجترار القهري في حالة من تبدل الذات، وتعطل القدرة على الفعل، أنه يظل مثبّثاً Fixedتبعاً لأدبيات التحليل النفسي على صدمة الهدر وتعطل الذيمومة، التي تصنع وتصير عادة بمقدار النقص في إنجاز مشروع الودّ مع المحيطين.

وبذلك تغدو ثقافة النق والندب والنواح، هي مصدر السلوى والعزاء والتفريح عندما يحتقن في النفوس ويجيش في الصدور، إلا أن ما يستوقف الباحث هو مقدار شيوع ثقافة الندب هذه، ومقدار انخراط الناس المهودرين فيها، وميلهم للاسترسال في أنينها وأهاتها، وحرماناتها وإحباطاتها، إنه فعلاً تقييم للاكتئاب يصدّ من جاذبيته وقدرته على نشل الناس المهودرين، من دوامة اليأس هذه.

أخيراً أصل إلى القول: إنّ هدر الطاقة المتسببة للأشخاص نتيجة الإحباط، هو: اعتداء غير مستحق، يتخذ طابع الظلم، وعدم الإنصاف من قبل شخص ظالم، مؤذ لإنسانيتنا، أو على الأقل غير منصف، ليكون الهدر الذي يحط وزره

علينا، نتيجة هدر الطاقة الفعّالة بالحياة فينا، هو شكل يهدد وجودنا، من حيث القيمة والاعتبار الذاتيين، أو هو شكل إعاقة لصناعة مشروع الوجود والضرورة... تلك هي الدلالة على الهدر، وضياع الطاقات الإيجابية، على اختلاف ألوانها، ودرجات شدتها، إذ يتم تحريك الجهاز العصبي السمبتاوي، والنظام الهرموني لتعبئة الجسم للدفاع والتكيف مع المؤثرات المفاجئة، فإذا كانت القوى على شيء من التكافؤ أو الهروب، وإذا كان ميزان القوى على قدر عالٍ من الاختلال لصالح التهديد الخارجي، ومؤثرات الغضب الجسدية والسلوكية والانفعالية والعقلية، فهذا ليس سوى مظاهر لهذه التعبئة الحيوية، التي تُصعد الطاقات والقدرات بشكل غير مألوف، في حالات الاسترخاء والغضب. لتكون هذه التعبئة النفسية ضرورية لمد بالطاقة، والقدرة على التكيف والمجابهة، وبذلك نصل إلى أنّ الهدر في الطاقة الحيوية للإنسان، يطابق هذه الآلية بالضرورة كدفاع حيوي وطبيعي، وعليه فالآليات الدفاعية على اختلاف ألوانها المادية والنفسية دفاعاً عن الكيان الذي تعرض للأذى من خلال الهدر المتسبب بالإحباط كدافع غريزي، بما يتعلق بالقوى البيولوجية للبقاء، ويشكل إحدى وظائف نزوة العدوان التي إن استحكمت وطغت على، كل معاني الحياة المضادة للإحباط فينا... حينها يغدو لزاماً العمل على الذهنية والجوانب الوجدانية التي تغذيها الروحانيات والقيم المختلفة المستمدة من كل أجيال التراث الإنساني بآدابه وفنونه وفلسفاته الروحية كمنطلقات لشحن الطاقات والهمم بغية استعادة نبض جديد للاستمرار بأهداف حياتية بديلة تليق بالمرحلة الذي يقف عليها هؤلاء الأشخاص المتأذين.